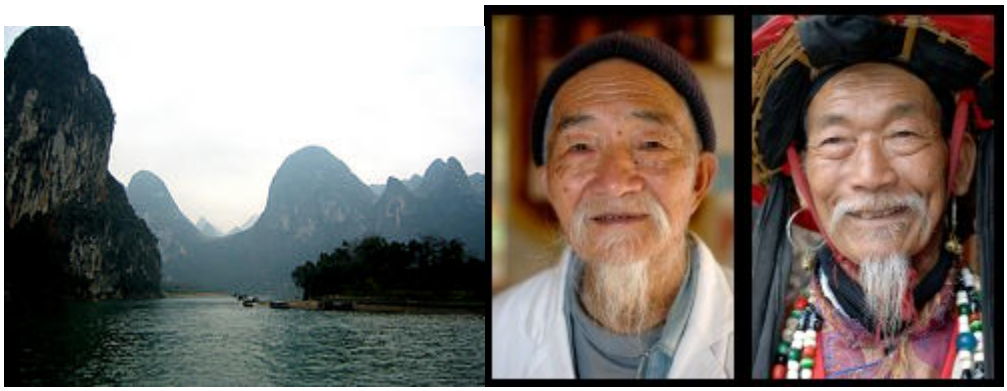

كنـــــــوز الصداقـــــة

بينما كان أحد الشيوخ مستلقياً على الحشائش الخضراء أمام بيته المطل على نهر الغانج، وكانت شمس حياته قد آذنت بالغروب، سأله أحد الشباب: يا شيخ، لو أعيدتْ عقارب الساعة إلى الوراء وأعطيتَ فسحة جديدة ومديدة من العمر فماذا كنت ستفعل؟

أجاب الشيخ بشفتيه المرتعشتين: "يا بني، لو حدث ذلك لكنت أود أن أصرف نصف عمري مع أصدقائي القدامى والنصف الآخر في بناء صداقات جديدة".

تلك هي عذوبة الصداقة التي تمد جذورها في تربة النفس وتبعث العزاء في القلب والروح حتى الرمق الأخير. الصداقة الصادقة بالنسبة لفلسفة اليوغا هي مطلب لازم للتقدم الروحي. فمن خلال الصداقة يتخلى الإنسان عن أنانيته فيتمدد وعيه في مجالات فسيحة ومريحة تعود عليه وعلى الغير بالنفع والخير. فالصداقة هي هبة إلهية وكل من يمتلكها ويعرف قيمتها محظوظ ويستحق التهنئة، لأن الإمتداد هو نمو وتفتح.

لولا الأصدقاء الطيبون لكانت الحياة كرمل الصحاري الجاف، فما أصعب الحياة بدون أصدقاء وما أبهجها معهم!

الحياة هي سلسلة من المفاجآت غير السارة تتخللها أحزان وإحباطات لا نهاية لها. لكن وجوه الأصدقاء المشرقة بالابتسامات العذبة تجعل من تلك الحياة منبعا للفرح وتحولها إلى روض بهيج من الأزاهير والورود الناضرة.

ذات مرة التقى فيلسوفٌ كئيب فلاحاً أمياً في غاية السعادة، فسأله عن سر سعادته وسط حياة كلها صراع واكتئاب. فابتسم صاحبنا الفلاح وبفرح غامر أجاب قائلا: "لأنني لست وحيداً في الصراع إذ عندي لله كوكبة من الأصدقاء المحبين هنا وهناك أثق وأعتز بهم وبصداقتهم الثابتة كالصخرة التي تتكسر عليها الأمواج المتلاطمة".

المفكرون يقللون أحياناً من أهمية الصداقة التي هي مكسب ثمين بالنسبة للشخص

العادي. إذ بالرغم من كل القوى المعاكسة التي تحاول أن تسد منافذ الحياة وتضع العصي في العجلات والعراقيل على الدروب، تبقى الحياة متألقة بالسعادة النابعة والنابضة من قلب الصداقة والأصدقاء الأوفياء.

وهذه الصداقة عندما تكبر وتتوسع تضفي معانيَ جديدة على الحياة وتجعلها أكثر بهجة ورونقا، بل وأكثر قدسية.

ذات مرة فقدَ أحد المستثمرين كل أمواله في سوق المال. وبدلا من أن يولول ويندب حظه العاثر قال: "دوام الحال محال، إنما ما من شيء يبقى راسخا في ذاكرتنا سوى الصداقة الحقة".

أجل، ما من شيء يمنح النبل والسمو لشخصية الإنسان ويغذي روحه كالأصدقاء المحبين. الناس لا يقدّرون قيمة الحياة إلا بعد فقدانها. هذا صحيح وينطبق على الأصدقاء الأعزاء الذين غالبا ما لا نقدّرهم حق قدرهم إلا عندما يفارقوننا.

الصداقة النبيلة تسمو بالنفس وتأتي إليها بإشعاعات محيية من العزيمة والقوة والفرح. أما الأنانيون الذين لا يفكرون إلا بمصالحهم ومنافعهم الشخصية فيبظلوا متقوقعين داخل أفقهم الضيق المحدود، ولا يكتسبون شيئا يذكر في الحياة، لأن الحياة مبادلة ومشاركة، أخذ وعطاء، استفادة وإفادة. وهذا هو ناموس الوجود.

التاريخ يخبرنا أن والدة الشاعر الإغريقي الأشهر هوميرس دمرت مملكة بكاملها بسبب أصدقاء مزاجيين متقلبين. أما الحكيم نارادا الذي أصبح متنورا فقد كان ابن عبدة لكنه طمع بصداقة الحكماء المتنورين فاستفاد الكثير من مصاحبتهم وأصبح واحدا منهم. لكن كيف تسنى له مقاربتهم بالرغم من أصله الوضيع؟ الجواب هو أنه كان مثابراً وجادا في مسعاه، والله لا يحرم المخلصين ذوي النوايا الطيبة من تحقيق آمالهم وبلوغ ما يصبون إليه في الحياة. لقد ابتدأ بخدمة الحكماء وانتهى بمصاحبتهم ويا له من إنجاز كبير! فصحبة العظماء تلهمنا الشوق لبلوغ آفاق بعيدة وسعيدة وتستحثنا لمواصلة السير دون تلكؤ حتى نبلغ محجتنا.

لقد ساعدته مصاحبة الحكماء على فتح بصيرته على خفايا الوجود فانتعشت أحاسيسه وتجددت قواه وثمل قلبه بموسيقى الأفلاك، فامتلأ طيبة وصلاحا وفتحت أبواب الخير في وجهه.

الصداقة إذاً هي تعاطف كوني. فليغسل الإخلاص كل الشوائب من العقل والقلب حتى تتواصل القلوب وترتبط المشاعر وتتعزز الأواصر بين الناس. عندما تتلبد السماء بالغيوم تحجب الشمس ولا نبصر سطوعها. وبالمثل فعندما لا تكون الصداقة مؤسسة على الوفاء والإخلاص يحتجب التعاطف الكوني ولا يمكن للإنسان أن يحس بلمسته. المغناطيس وحده يمغنط والصداقة الصادقة تؤثر إيجابيا في شخصية الإنسان، وهي ضرورة ملحّة للنفس وصفة ملازمة لها. وهي تعمل بموجب إيقاع التجاذب الكوني، لأن التجاذب ذو طبيعة كونية. ويقال أن القمر الباسم يجذب المياه الراقصة على

الأرض مثلما تجذب الشمس الجبارة الكواكب السيارة. ومثلما تجذب البرودة الثلج والالكترونات تجذب البروتونات هكذا تجذب القلوبُ القلوبَ والنفوسُ النفوسَ.

وفي هذا الصدد سألت فتاة هندية والدها، وكانت شعلة من الذكاء: "لماذا يا أبتِ نلاحظ هذا التعاطف الكوني يسري في عروق الحياة والكائنات والموجودات على اختلافها؟"

فأجابها والدها الفخور بابنته اللامعة:

"هذا يحدث يا بنيتي العزيزة لأن روحاً كونيا يكمن في قلب كل شيء. البعض يدعونه الحق السرمدي، وآخرون يسمونه الحقيقة المطلقة أو الذات العليا أو النفس الكلية. وكل ما في الوجود متصل بذلك الروح الأعظم بأسلاك غير مرئية، مثلما ترتبط الكائنات ببعضها من خلال ذلك التعاطف الفطري الحميم والكريم.

تنمو الصداقة في تربة المودة والفهم والتعاطف. ففي اللحظة التي تحس بها بنبض المودة النقية المتحررة من شوائب وعيوب الأنانية يحصل تفاهم متبادل بينك وبين صديقك على الفور فيصبح صديقك جزءاً لا يتجزأ من ذاتك وركناً من أركان حياتك. ويحصل تعاطف صادق ما بينكما فتتضاعف أفراحكما في حين تتضاءل الأحزان والمصائب لأنها تتجزأ بفعل تعاطف الأصدقاء، فيخف زخمها وتضعف حدتها .

وكما تستطيع مزج معدنين اثنين مع بعضهما بتعريضهما لتيار كهربائي ومواد كيماوية هكذا يمكنك دمج حياتين في حياة واحدة بالاستعانة بتيار التعاطف وكيمياء المحبة الخالصة فتتلاشى الثنائية بفعل القوة الروحية.

بعض الأصدقاء يظهرون في أفق حياتنا دون أن نفتش عنهم أو ندعوهم لمصاحبتنا. وما أن تصافح عيوننا عيونهم حتى نحس بفرح صامت وامتداد في الوعي ورجفة عذبة ومحببة في صميم الوجدان. فالأصدقاء هم أصدقاء قبل أن يلتقوا وما اللقاء إلا بمثابة التتويج للصداقة والاحتفاء بها. المصاحبة هي فن من أروع فنون الحياة لأن الحياة كانت ولم تزل تبحث عن الصداقة منذ أن ظهرت على هذا المسرح الأرضي.

قد تأتي الصداقة من تلقاء ذاتها، ولكن إن لم نوفها حقها ونحتفي بها، أو إن حاولنا استغلالها لمصالحنا الشخصية فقد تفلت من بين أيدينا وتتلاشى كسراب الصحاري.

إننا نحنّ للصداقة من المهد إلى اللحد. ولذلك فعندما نمتلكها يجب أن نرعاها ونقدم لها الغذاء الصحيح والنافع. وبعبارة أخرى الصداقة هي ثقافة .

إن كانت الصداقة ثقافة فما هي متطلباتها؟ أولا وقبل كل شيء عهد الإخلاص والنقاء. فالقلبان أو الروحان يجب أن يكونا على توافق تام وعلى مستوى واحد من التفاهم. ولكي تزهر الصداقة وتثمر وتستمر يجب أن تتأسس على دعائم الصدق والإخلاص والنظافة والنقاء. الإخلاص هو التعويذة التي تفتح كنز الصداقة، أما النقاء (صفاء النية) فهو غذاء الصداقة.

هناك أصدقاء كالخفافيش أو كبوم الليل يتعاهدون على الوفاء على الشر، لكن الذي بينهم ليس صداقة حقيقية لأنها غير قائمة على أسس الإخلاص ولأن الدوافع غير

نظيفة ولا تسندها مبادئ سليمة بالرغم من ذلك الخيط الواهي الذي يشدهم لبعضهم البعض.

الأصدقاء الذين يجذبهم بريق الشهرة والجمال والثروة والممتلكات يتخلون عن أصدقائهم بسرعة عندما تتعثر الحظوظ ويجد الجد، مثلما قال شكسبير: الأصدقاء الذين تكسبهم بوجبة طعام تخسرهم بسرعة. أو بعبارة أخرى (الصديق الذي تشتري صداقته بمنسف أو بصحن حمص لا تهنئ نفسك على صداقته لأنك ستجده كالحبل المتختخ عند الضيق، أو كما قال فيلمون وهبة: بالدنيا ما بهمه إلا يكون بطنه مليان!)

كل شيء يتغير في الطبيعة باستثناء نفس الإنسان. وما لم يكن التقارب روحياً فلا الذهب ولا الجمال لهما القدرة على إنعاش الصداقة وتفعيل مسيرتها، لأن تلك الأشياء لا ديمومة لها. وينصحنا الحكماء بأن لا نتظاهر بالصداقة ما لم نحس بدفئها ونبضها في أعماقنا. التقليد لا دوام له لأنه يفقد بريقه الرخيص مع الأيام .وهناك مثل هندي يقول أن الإدعاء أسوأ من الجفاء، والصديق المزيف أسوأ من القديس المدعي أو من الوجه الصفيق المغطى بالمساحيق. بل أن الصديق المخادع أخطر من عدو أزرق، لأن العدو يظهر عداوته دائما مما يساعدك على أخذ الحذر منه. ولكن في حال الصديق المخادع تكون غافلا عن المخاطر المحتملة أو المحدقة في الوقت الذي يطعنك فيه من الخلف. ولذلك فإن المطلب الأساسي للصداقة هو ميثاق الإخلاص والنقاء الذي ينبغي المحافظة عليه لأن الصداقة تعتمد اعتمادا كليا على ذلك العهد أو الميثاق.

يلي ذلك المثل العليا. وهنا يجب أن نعترف بأن الإنسان أعظم من ممتلكاته وأن الشاعر أكبر من شهرته وأن جمال الشاب أو الفتاة هو في النفسية والأفكار لا في الوجه والقوام وحسب.

لقد قال أحد الأصدقاء لصديق له: "لا يهمني يا صاحبي إن كنتَ غنياً أو فقيرا، معافى أو مريضا، محلا للمدح أو عرضة للقدح، حراً طليقاً أو قابعاً في ظلمة السجن، قريباً مني أو بعيداً عني، ولا يهم إن كتبت لي أو لم تكتب، أو تذكرتني أو نسيتني، أو أحببتني أو تخليت عني، سأبقى صديقك على الدوام".

فما كان من صديقه إلا أن أجاب: "وأنا كذلك يا صديقي!"

وقد قال المعلم برمهنسا يوغانندا لأحد تلاميذه:

"مهما حدث ومهما كان وسيكون، ستجدني صديقك الوفي دائماً وأبداً".

مثل هذه الصداقة هي نسائم النعيم التي تهب على حياتنا البشرية من فردوس الروح بين الفينة والأخرى.

الجمال يذوى ويذبل، والشهرة تتلاشى وتضمحل، والثروة ينخرها السوس، لكن الصداقة الصادقة المتحررة من كل المؤثرات الخارجية تبقى حية على الدوام. ومثل تلك الصداقة هي

نتاج المُثل العليا التي يحترمها الأصدقاء ويؤمنون بها.

إن توقفت عن سقي حديقتك فستموت أزهارها ونباتاتها. وبالمِثل إن توقفت عن تغذية صداقتك بالمُثل النبيلة السامية فلن تعمّر طويلا. الإمبراطوريات قد تنهض وقد تسقط، لكن الصداقة الخالدة التي قامت بين العظماء وأصحابهم وصحابتهم قد خلدها التاريخ والزمن لأنها كانت مؤسسة على عهود ومواثيق، ولذلك لم تقوَ يد الدهر على المساس بها ولن تقوى.

في الصداقة يأتي القلب قبل الفكر. التعاطف العقلي له مكانه لكنه ليس بأهمية التعاطف الوجداني. إن عجزتْ القلوب عن التحدث بلغة الألفة والمودة فلن تقدر العقول على بناء صداقات متينة ودائمة.

القلب يتكلم لغة واحدة فقط لا غير في حين يتكلم الفكر أو العقل لغات عديدة. الأناس العاديون الطيبون أكثر تفهماً للصداقة وأكثر قدرة على التضحية في سبيلها من جهابذة الفكر ذوي الأدمغة الكبيرة المهتمين بتنمية قواهم العقلية على حساب القلب. عندما تتحد القلوب تتحد العقول تلقائيا. الفوارق الفكرية ليست ذي بال بين الأصدقاء ما دامت توجد مساواة قلبية بينهم. عندما ترغب في دمج معدنين معاً فينبغي أن تصهرهما أولا. أحياناً العقلانية البحتة هي ضرب من الرفاهية بالنسبة للشخص المغرور. ابتعد عن ذلك الشخص الذي لا يستطيع أن يتلفظ بكلمة واحدة دون الإشارة تلميحاً أو تصريحاً إلى علومه ومعرفته وإنجازاته ومكتسباته ومنصبه وثروته. دعه وشأنه لأنه لا يستحق أن تصغي له أو تلقي بالاً لشقشقته وتبجحه .

الأغبياء يتظاهرون بالفهم والمعرفة. القمر لا ينتقل من شجرة إلى أخرى ليظهر أشعته، لكن الحباحب (ذباب الليل المضيء) يفعل ذلك. عندما تتوحد القلوب بين الأصدقاء فمن السهل جدا التوصل إلى مستوى عقلي معقول. هذا يحدث ما دام لا توجد رغبة أخرى سوى التقارب الروحي والتآلف الوجداني. والحالة هذه يقوم أحد الصديقين بنقل أفكار جديدة ومفيدة لصديقه فيتقبلها صديقه بشوق ولهفة وامتنان فتصبح أفكاره الخاصة وتزداد بذلك ثروته الأدبية والمعنوية بفضل الصداقة.

بإمكانك أن تنعش شخصاً مغمىً عليه وتعيده للوعي. ولكن إن كانت روحه قد فارقت الجسد فلا يمكن إعادة الحياة إليه حتى ولو ملأت رئتيه بالأكسجين. فالميت ميت والبقية بحياتكم.

المزايا القلبية هي أنفاس الحياة المحيية بالنسبة للصداقة. أما المقاربات العقلانية فلا تجلب تقارباً حقيقياً ولا تخلق تفاهماً بين الناس. وقد أبدع الشاعر عندما قال: لمسات القلب تجذب إلينا الأصدقاء من قريب وبعيد.

يجب أن يقدّر الشخص الصداقة حق قدرها ويحترمها ويعطيها من ذاته دون تقتير. إن نفوسنا رحبة واسعة والصداقة هي امتداد للنفس وتوسيع لأبعادها.

يقال أن عموداً خشبياً قائماً على قارعة الطريق نادى شجرة ذات مرة وقال لها:

"لماذا تمدين أغصانك وأوراقك في الفضاء؟"

أجابت الشجرة: "لكي أجتذب الحياة لنفسي من الشمس ومن الهواء".

وبالمثل، كلما مدّدنا وعينا كلما اجتذبنا حياة جديدة إلى نفوسنا. وما أن نوسّع مداركنا حتى

تتهاوى الذات الصغيرة أو الأنا فنتوحد مع القوة الكونية. لذلك الصداقة الصادقة هي من ناحية امتداد ذاتي ومن ناحية أخرى تخلص من الوهم الذاتي.

إن تضحية المصالح الذاتية في سبيل الصداقة والأصدقاء تساعد على توسيع الوعي والامتداد في آفاق جديدة وبعيدة. الصديق القادر على العطاء يمكنه التوسع. أما الشخص الذي لا يهتم إلا بما يمكنه تحصيله – حتى على حساب أصدقائه – فيقضي على تفتحه الروحي ويبقى طوال عمره (مطرحك يا واقف!) أو (مثل الميّة بالطلوع!)

الإنسان يجب أن ينمو ويتطور روحياً وإلا فإنه سيعاني كثيراً من أعباء الحياة الثقيلة. الأنانيون هم أكثر الناس إفلاساً من حيث الأصدقاء وأكثرهم تعاسة على وجه الأرض. والأجدر بهم العيش على كوكب منعزل بمفردهم حيث لا يوجد سواهم هناك لأن ذلك هو المكان الأنسب لمن لا يفكر إلا بنفسه ولا يهتم إلا بشؤونه الخاصة.

الصداقة المبنية على اعتبارات غير نظيفة تخنق ذاتها بذاتها حتى الموت. للنوايا الطيبة قوة جبارة تجعلها تتنقل بسهولة في الزمان والمكان. أما النوايا الخبيثة فهي مكبلة بقيود كثيرة ولا تستطيع الابتعاد عن زنزاناتها التي وضعت نفسها فيها فأضحت مقيدة بجنازير يصعب كسرها والإفلات منها.

الصداقة يؤثر فيها سلباً ضباب الظنون والشكوك والاهتمام بالصغائر. دع الضباب ينقشع من تلقاء ذاته وتذكر أن للصداقة حقوقاً وواجبات، وإن حصل سوء فهم فالتوضيح مطلوب ما دام صديقك متجاوباً ومتفهما. وتذكر أن التسامح هو ثمن الصداقة.

الأصدقاء الحقيقيون لن يتخلوا عنا أبدا ما لم نضطرهم لذلك بكلامنا الجارح وتصرفنا غير المسؤول. فيجب أن لا نسمح لمزاجنا ورغباتنا وتحبيذاتنا أن تصبح عبئا ثقيلا على أصدقائنا بحيث لا يمكنهم مواصلة المشوار معنا.

ألا فليتحدث القلب إلى القلب والإخلاص إلى الإخلاص .النبل والأصالة مطلبان أساسيان لاجتذاب الأصدقاء النبلاء الأصيلين. إن كل ما في الوجود يسعى لاكتساب ودك ومصاحبتك: النور، الهواء، السماء، الثراء، الصحة، وكل شيء نافع وجميل في الدنيا وما عليك إلا أن تهش وتبش وترحب بضيوف الرحمن وستكون ذا حظ عظيم.

الأصدقاء الطيبون سيأتون إليك ما دمت تتشوق لصحبتهم وتفتح قلبك على مصراعيه لاستقبالهم.

وليس آخراً فلنتذكر أن الله هو الصديق الأكرم والرفيق الأعظم الذي لا ينسانا حتى ولو نسيناه ويذكرنا دوما ولا يتخلى عنا لحظة واحدة.

والسلام عليكم.

المصدر: مجلة الشرق والغرب

الترجمة :محمود مسعود